دراسة تحليلية لـ "مذكرات طبيبة" لنوال السعداوي

أختر الإسلام واني
باحث الدكتوراه في جامعة كشمير

الملخص

نوال السعداوي طبيبة أمراض صدرية وأمراض نفسية، هي كاتبة وروائية مصرية مدافعة عن حقوق الإنسان بشكل عام وحقوق المرأة بشكل خاص. كتبت العديد من الكتب عن المرأة، اشتهرت بمحاربتها لظاهرة الختان، هي أسست جمعية تضامن المرأة العربية عام ١٩٨٢، كما ساعدت في تأسيس المؤسسة العربية لحقوق الإنسان. استطاعت نوال أن تنال ثلاث درجات فخرية من ثلاث قارات، تخرجت من كلية الطب جامعة القاهرة في ديسمبر عام ١٩٥٥ وحصلت على بكالوريوس الطب والجراحة. من أهم أعمالها وأول رواياتها وسيرتها الذاتية هي "مذكرات طبيبة" التي تشتمل على بعض أجزاء من حياتها وأجزاء أخرى من حياة زميلات الطبيبات وصديقاتها، تقول عن هذه الرواية: لم ينشغل النقاد إلا بسؤال واحد: أهي رواية أم سيرة ذاتية؟ وسؤال آخر كان يشغلهم: ما علاقة الطب بالأدب، كيف أكتب أدبا وأنا طبيبة؟ أحاول إبراز بعض ملامح النسوية في هذه الرواية وسيرتها الذاتية.

نبذة من حياتها ومعتقداتها

ولدت نوال السعداوي في قرية كفر طحلة في شاطئ النهر القاهرة ٢٧ أكتوبر ١٩٣١م بمدينة العباسية في القاهرة. وهي طبيبة نفسية وناقدة وكاتبة وروائية مصرية، ومدافعة عن حقوق المرأة، ومن أبرز أعلام الحركة النسوية في مصر، وهي ناشطة نسوية كرست كتاباتها ومسيرتها المهنية للحقوق السياسية والجنسية للمرأة[١] درست نوال منذ الصغر يعني منذ الابتدائية حتى وصلت إلى مرحلة الدراسة الجامعية في بلادها مصر. التحقت بجامعة القاهرة وحصلت على البكالوريوس في الطب والجراحة وتخصصت في مجال الأمراض الصدرية. ثم التحقت بجامعة كولمبيا بالولايات المتحدة، وحصلت هناك على شهادة الماجستير. اختارت نوال كلية الطب ليس لإرادتها ولكن بناء على تكليف الحكومة كما قالت: بأن اتخذت كلية الطب الطلاب الذين يملكون أعلى قيمة في مدارسهم. وكانت نوال هي واحدة من أفضل ٥٠ امرأة من بين المئات من الطلاب الذين تخرجوا في عام ١٩٥٥م. شققت طريقها من القاع إلى المعالم وليست إلى مصر فقط، سافرت للولايات المتحدة الأمريكية في مايو ١٩٦٥ لدراسة التثقيف الصحي بعد أن حصلت على منحة اتحاد الجامعيات الأمريكيات في كاليفورنيا، وفي ١٩٦٦ عادت إلى القاهرة بعد أن حصلت على الماجستير في التثقيف الصحي والإعلام الجماهيري[٢].

وتزوجت من طبيب وروائي وقائد ماركسي الدكتور شريف حتاتة. وبدأت العمل في مستشفى "القصر العيني" كطبيبة. وفي عام ١٩٧٢م تم نشر كتابها الأول "المرأة والجنس" صاحت السعداوي في هذا الكتاب ضد الأحكام الإسلامية من حيث أن وجهات نظرها ضد المهر، وتعدد الزواج، وكما عبرت الزواج بغاء مقنع، وأيدت بالقوة تحرير المرأة، قد مضت أكثر من أربعين قرنا على ما كان الله قال، فالأوضاع قد تغيرت، الحجاب مفهوم عبودي أرفضه. هي قالت مثل ما كانت تقول هدى شعراوي كيف لنا أن نقبل بأئمة الأربعة نشؤوا في عهد الظلام!؟ ونقبل بأقوالهم!؟ فتمشي عليهم أقوالنا، وعندنا دساتيرنا

---

[١] http://www.britannica.com/biography/NawaalELSadaawi

[٢] www.nawalsaadawi.com

المتحررة، وعندنا أوروبا قبلة العالم. (العياذ بالله) وقد أثار كتابها المذكور ضجة في الأوساط العلمية والأدبية فطردت السعداوي من وظيفتها في وزارة الصحة، ثم في عام ١٩٧٣م أخذت تعمل كباحثة في كلية الطب بجامعة عين شمس، وخلالها قامت بالبحث عن المشاكل النفسية التي تعاني منها المرأة، وفي عام ١٩٨٢م قامت السعداوي بتأسيس جمعية تضامن المرأة العربية التي تقوم بالعناية والاهتمام بشؤون المرأة في العالم العربي كله، ونظم المجلس الأعلى الثقافي مظاهرة نسوية ومؤتمرا في عام ١٩٩٩م فشاركت السعداوي فيها ورفعت صوتها ضد ما كانت تعانيها المرأة وطالبت بالمساواة بين الرجل والمرأة في الميراث وحقوقها المطلق في الحرية بجسدها وبحقها في كسر أي قيود للرجل عليها والتخلص مما أسموه القيود الدينية التي تعيق المرأة عن التقدم. وهكذا نقدت الأحكام الإسلامية ورفعت صوتها ضد الحجاب قائلة: لا علاقة للحجاب بالإسلام فهو عادة عبودية انعكست في اليهودية والمسيحية فلماذا يلصقون الإسلام بالحجاب. وخالفت الحج الذي هو ركن خامس من أركان الإسلام قائلة: ولستُ أن أقبّل القبل الحجر الأسود وألبس حجابا وأطوف، هذه هي وثنية.. الحج هو بقايا الوثنية"[٣]

ما من شك أن الروائية المصرية نوال السعداوي واحدة من أهم الروائيات العربيات اللواتي أحدثن جدلا واسعا بين صفوف النقاد خاصة، وعلى صعيد الشارع العربي عامة، نشأ هذا الجدل بسبب المضامين الجريئة التجديفية الكفرية التي تناولتها السعداوي في رواياتها المتعددة، وعلى رأسها الغبن والإجحاف اللذان لاقتهما المرأة المصرية خاصة، والعربية عامة، من أهم رواياتها وسيرتها الذاتية "مذكرات طبيبة" وهي رواية جديرة بالبحث والتحليل سأقوم في المقالة بالبحث محاولة لسبر أغوار هذه الرواية، وكشف مضامينها المتعددة، لا سيما تلك التي تسلط الضوء على معاناة المرأة، ومحاولاتها لجسر الهوة بينها وبين الرجل.

"إضافة إلى الروايات والقصص، فقد كتبت نوال السعداوي كثيرا عن المرأة العربية من خلال الكتب النظرية. من أشهر هذه الكتب: المرأة والجنس، المرأة والصراع النفسي، الأنثى هي الأصل، أنا المرأة، سقوط الإمام، رحلاتي حول العالم، الباحثة عن الحب، الخيط والجدار، مذكراتي في سجن النساء، مذكراتي طفلة اسمها سعاد، وسيرتها الذاتية المكونة من ثلاثة أجزاء"[٤]

هناك بعض التساؤلات عن معتقدات نوال كيف تحولت معتقداتها إلى هذا الحد بأنها صارت تجرأ على الله وتجرأ على كل من عظماء الإسلام وشعائرها العظيمة!، فقد وصلنا إلى أن الحياة الاجتماعية كانت آنذاك من النوع الذي أدى إلى خلق مثل هذا الجيل الذين تكلموا في الدين ما لا ينبغي للإنسان أن يتفكر فيها أو يتكلم بها. لأننا نرى في سيرتها الذاتية بأن أباها كان يفرق بينها وبين أخيها، كما صرحت فيها بأن أخيها كان يلعب في اليوم كله دون إذن من أبيها وأمها وكنت غير مسموحة بالخروج من البيت وكنت أطبخ له الطعام وأعمل في البيت ليلا نهارا. أرتب سريري وسريره، وما كان يليق بأي شيء كان يلعب ويصرخ وينام ويأكل، لا يهمه سواه وكنت أصغر منه بعام واحد، كانت من واجباتي أعمال المنزل والقراءة والكتابة، كنا في مدرسة واحدة أتفوق عليه في كليهما في واجبات المدرسة وأعمال البيت. رغم كل هذه الصعوبات والكثير من الانشغال أبي كان يحبه أكثر مني وأشد مني وفي يوم العيد يحصل على القروش أكثر مني! وأحيانا كنت أسأل أبي لماذا تفرق بيني وبين أخي؟ فيرد عليّ: الله قال في كتابه الكريم "البنت نصف الولد".

هي تسلط الضوء في الرواية على ظلم الأبوة على الأمومة مع أن الأم تعني لي كل شيء وكانت تربيني وترعاني وتحفظني من

---

[٣] الأنثى هي الأصل، نوال السعداوي، مؤسسة هنداوي، ص ١٨١

[٤] السيرة الذاتية النسائية العربية المعاصرة، أمل تميمي، ص: ٤٨

كل شر، وبالنسبة إلى كل الصراعات والنكبات هي ما كانت تملك من شيء! هي تبرز من بعض اضطهادها قائلة: "منذ علمتني أمي الحروف عرفت تكوين كلمة ذات معنى هو اسمي، بدأت أكتبها كل يوم، أربع حروف متشابكة (نوال)، أحببت شكل الاسم ومعناه النوال أو العطاء، ارتبط بي. أصبح جزءًا مني، عرفت اسم أمي (زينب) كتبته إلى جوار اسمي فوق كراستي الصغيرة، أحببت شكل الاسمين معا ومعناهما كما أحببت نفسي وأمي. أكبر حب في حياتي منذ ولدت كان لنفسي ولأمي، بعد ذلك يأتي الآخرون، منهم أبي، شطب على اسم أمي، وضع اسمه إلى جوار اسمي، ثم وضع اسم أبيه (السعداوي)، رجل مات قبل أن أولد. دار في عقلي السؤال: لماذا يشطب أبي اسم أمي؟ ولدتني. أرضعتني، علمتني الكتابة. ترعاني كل يوم؟! يضع مكانه اسم رجل غريب لم أره في حياتي. مات قبل أن أولد؟ كرهت اسم الرجل (السعداوي) يلغي اسم أمي من الوجود، سألت أبي عن السبب فقال لي: إنها إرادة الله"[٥]

وهي تمشي في كتاباتها تجرأ على الله بأنه هو المسؤول عن التفرقة بيني وبين أخي! لكن من دون تفكير هي حاولت أن تكتب رسالة إلى الله (نعوذ بالله) بأنه هو الحق من دون تردد ولكن "يا ربي إذا كنت أنت الحق فلماذا تفرق بيني وبين أخي ولماذا تفرق بين أبي وأمي"[٦]

إن نوال لم تتدرب على يد والدها منذ طفولتها، ولهذا السبب كانت تليق بأن تتحدث وتأتي بمثل هذا الكلام والخرافات، لأن المجتمع والعادات والخطابات القديمة خلقت مثل هذه الانقسامات الاجتماعية. فهذه أيضا من سوء التربية غير المستقيمة من جانب الوالد، كانت البيئة المصرية كما يظهر من العبارات لم تكن بيئة دينية فلذا كانت الطفلة هي تمشي على أفكار الفكرة التي قد ربت عليها فهي تمثل في كل موقع من المواقع من خلال الكتابة والمحاضرة والإعلام بل في كل مكان تمثيلا التي كان يوحي أبوها في خواطر طفولتها الأولى.

نبحث عن الخلفية الفكرية في روايتها "مذكرات طبيبة" وكيف وصلت إلى مثل هذه الأفكار الغريبة والمتحيرة نصل إلى أن ما يميزها عن المفكرين الآخرين هو وعيها المبكر بالتناقضات والاختلافات الموجودة في ذاك المجتمع الذي كان في الحقيقة تميز بين الذكر والأنثى! كما اتضحت في مذكراتها: "بدأ الصراع بيني وبين أنوثتي مبكرا جدا قبل أن تنبت أنوثتي وقبل أن أعرف شيئا عن نفسي وجنسي وأصلي... بل قبل أن أعرف أي تجويف كان يحتويني قبل أن ألفظ إلى هذا العالم الواسع. كل ما كنت أعرفه في ذلك الوقت أنني بنت كما أسمع من أمي. بنت! ولم يكن لكلمة بنت في نظري سوى معنى واحد... هو أنني لست ولدا... لست مثل أخي... أخي يقص شعره ويتركه حرا لا يمشطه وأنا شعري يطول ويطول وتمشطه أمي في اليوم مرتين وتقيده في ضفائر وتحبس أطرافه بأشرطة... أخي يصحو من نومه ويترك سريره كما هو، وأنا على أن أرتب سريري وسريره أيضا. أخي يخرج إلى الشارع ليلعب بلا إذن من أمي أو أبي ويعود في أي وقت... وأنا لا أخرج إلا بإذن. أخي يأخذ قطعة من اللحم أكبر من قطعتي ويأكل بسرعة ويشرب الحساء بصوت مسموع وأمي لا تقول له شيئا... أما أنا... لـ أنا بنت! عليّ أراقب حركاتي وسكناتي... عليّ أن أخفي شهيتي للأكل فآكل ببطء وأشرب الحساء بلا صوت.[٧]

وأشارت إلي هذا الأساس في موضع آخر متحدثة: "أنني بنت وهو ولد"[٨]في الحقيقة أنها ولدت مشحونة بالتمرد

---

[٥] قضايا المرأة والفكر والسياسة، نوال السعداوي، مكتبة مدبولي، ص ٣٧

[٦] نفس المصدر، ص٣٨

[٧] مذكرات طبيبة، نوال السعداوي، دار المعارف، ص ٥

[٨] أوراقي حياتي، نوال السعداوي، دار الهلال، ج١ / ص ٣٣

فتنفست هواء التمرد منذ طفولتها لأنها ترى أن المجتمع والأسرة ظلمتها بالعرف السائد بأنّها أنثى والأنثى ليست كالذكر. لقد اكتسبت نوال السعداوي وعيها منذ صغرها بمفارقة المجتمع بين مكانة المرأة والرجل وما رسخه المجتمع من ثقافة. واكتشفت عن حجم الاختلاف الكبير في الطريقة التربية بأسرتها بينها وبين أخيها الصغير، تمثل في روايتها الفارق الكبير والحجم التي تشمل كافة جوانب حياتها، لأن الأخ له حرية في الذهاب والإياب ولكن نوال لا يمكنها فعل ذلك. الأخ يتمكن من تصفيف شعره كما يشاء. أما هي فقد كانت تهدد من فعل ذلك! وعليها أن تبقى دائما شعرها طويلا ممشطا. بسبب هذه القيود والعادات المدهشة توضح الكاتبة بأنها تأثرت كثيرا بسبب هذه التربية غير الطبيعية، وفي بدء هذه التأثيرات المبالغة وأعمقها أنها بدأت تكره أنوثتها! وبدلا منها أخذت تتفكر في تغيير جنسها لكنها لم تتمكن. فلهذا تبدأ الكاتبة سلسلة أعمالها باستعراض الظلم الذي يمارسه المجتمع الذكوري العربي على المرأة منذ طفولتها. أول ما وعت الحياة، وعت امتياز أخيها عليها، وتقييد حركاتها: "كل شيء فيّ عورة. وأنا طفلة في التاسعة من عمري فيما أخوها يلعب، كان عليها أن تخدم نفسها وتخدم أخاها، بكيت على أنوثتي قبل أن أعرفها، عندما بلغت فاجأها دم الحيض، فارتعبت تم خجلت من العار، شعرت أن الله قد تحيز للصبيان في كل شيء. كان دأب أمها أن تعلمها على أعمال البيت وتربيها لتكون زوجة، ارتبطت في ذهني رائحة المطبخ برائحة الزوج، وكرهت اسم الزوج وكرهت رائحة الطعام. صارت تغار من أخيها، وتتمرد على حكم أمها، سأثبت لأمي أنني أكثر ذكاء من أخي ومن الرجل ومن كل الرجال. وأنني أستطيع أن أفعل كل ما يفعله أبي وأكثر وأكثر"[٩]

مثلما تنمو البذرة بعد أن تمّ غرسها في الأرض، كذلك نمّت بذرة الكراهية ضد الرجولة في خاطرها عندما كبرت وبلغت من عمرها إلى سنّ المراهقة ضاقت الحياة عليها وبدت لديها كأنها في السجن الدائم! ولهذا كلما عانت من آلام الدورة الشهرية أصبحت كالحجر فوق السرير لا تمكنه الحركة. ولأن بعض المظاهر للأنوثة يجب إخفاؤها فكانت السعداوي تشعر هذا الإخفاء بالخزي والعار.

تقول نوال إنها لما ترى الأطفال يلعبون ويرقصون في ميادينهم ومحافلهم لم تستطع منع نفسها وتعاني من الألم بعد الاقتراب من مجتمع الأطفال وبمشاهد المناظر الرائعة، وإن كانت قد حرمت من اللعب معهم فكانت تجلس على الباب لرؤية تلك المناظر الجميلة التي كان يستمتع بها الذكور فقط! وفي يوم من الأيام هي تخبر الأم عن هذه الرؤية البعيدة واستمتاعها بها، لم تتحمل أن تراها ثانية ووضعت اللوم عليها! تتحدث الكاتبة عن هذه الحادثة تحديدا وتغيير عادتها بعدها من إغلاق السجن عليها أكثر فأكثر، لأن استهداف الأنوثة بشتى الوسائل لازم، فحاولت بكل قوتها أن تبتعد عنهم.

كما أننا نشاهد في حياتها التمرد والطغيان في أفكارها وأعمالها، ولكن التمرد الأول الذي يوجد في حياتها هو تمردها على والديها، وهو أنها خرجت من المنزل ووصلت إلى الحلاق طلبت منه أن يقصّ شعرها. حينها شعرت السعداوي، بأنه ليس ضروريا أن تؤمن بأشياء يمكن التخلص منها في لحظة واحدة، وكان هذا أول حظر في المجتمع المصري فكانت الكاتبة أول من ضربتها بمطرقة ورفعت هذا القيد ولأجلها هي احتملت صفعات أمها المتكررة بقوة بعد أن اعترضت أمها على فعلها الشنيعة والقبيحة. استمرت نوال خلال دراستها اللاحقة الهجوم والسيطرة على التقاليد القديمة السائدة فبعكس(Unlike) بقية زميلاتها ركزت على الاشتراك في جميع أنشطة المدرسة مثل الخطابة والمسرح، وأظهرت كراهيتها الشديدة للاشتراك في التدبير المنزلي، التي تعلم الفتيات فنون الطبخ وأساليب الإدارة المنزلية.

كلية الطب

---

[٩] حقوق المرأة في الكتابة العربية منذ عصر النهضة، بو على ياسين، ص ١٤٧

وكما هو شائع في جميع المجتمعات المعاصرة بأن عمل الطب وخدمة الأطباء يفوق جميع الأعمال في الاحترام والتقديس فلذا قررت الكاتبة كلية الطب من أجل نيل رهبة الاحترام التي يخفيها المرضى للأطباء. تحكي الكاتبة بأن لحظاتها الأولى في كلية الطبّ كانت شديدة الاضطراب، فكانت تمشي مطرقة الرأس، تشعر بالخجل دائما، ولا تنظر في عين أحد، ولكنها سرعان ما تغيرت. تقول: "كلية الطب؟! نعم الطب... الكلمة وقع رهيب في نفسي... يذكرني بنظارة بيضاء لامعة من تحتها عينان نافذتان تتحركان بسرعة مذهلة... وأصابع قوية مدببة تمسك بإبرة طويلة حادة مخيفة... أول طبيب رأيته في حياتي... كان أخي ينتفض من الهلع... وكان أبي راقدا في الفراش ينظر إليه في استجداء واسترحام... الطب شيء رهيب... رهيب جدّا... سأكون طبيبة إذن... سأتعلم الطب... وسأضع على وجهي نظارة بيضاء لامعة... وسأجعل عيني من تحتها نافذتين تتحركان بسرعة مذهلة. وسأجعل أمي ترتجف من الخوف وتتطلع إلى فى ضراعة وخشوع... وسأجعل أخي ينتفض أمامي من الهلع... وسأجعل أبى ينظر إلى في استجداء واسترحام... وبالرغم مما فى داخله وخارجه من عورات فسوف أتغلب عليه... وسوف أضعه فى زنزانة من حديد عقلي وذكائي... ولن أمنحه فرصة واحدة ليشدني إلى صفوف النساء العجماوات. فردت قامتي الطويلة عن آخرها، نسيت النهدين وتلاشى ثقلهما من فوق صدري، شعرت أنني خفيفة، وأنني أستطيع أن أتحرك بسهولة كما أشاء...لقد رسمت لنفسي طريق حياتي، طريق العقل، ونفذت قرار الإعلام على جسدي، لم أعد أشعر له بوجود"[١٠]

وخلال دروس التشريح في الفصل بالاختلاط مع الرجال رأت أول مرة في مدة قصيرة جثث الرجال خالية وعارية تستطيع بكل بساطة وبكل بسالة أن تمسك المشرطة وتتعرف على تفاصيل جسده. بينما الرجال ينظرون إليها بنظرة مخيفة اعتبرت نوال بأنها أثبتت في مدة قليلة تفوقها على عروشهم السلطانية التي تربت على طاعتها، فهي تحرض وتتحدث عن أمنياتها بأن التقاليد القديمة والأعراف السائدة التي تعلم الإنسانية جمعاء بأن المرأة يناسب لها البيت وتتحلى بالأعمال المنزلية من أساطيرها وخرافاتها.

تجربتها في الزواج الأول

تحكي نوال السعداوي قصة زواجها للمرة الأولى بأنه في أحد الأيام جاء إلى منزلها رجل غريب وجلس مع أبيها لما وقعت نظري عليها أمرتني أمي أن أغير الثياب وأتجمل في الملابس، وأتأنّق في الهندام والزينة التي لا بد أن تتجلي فيها الأنوثة وتبرز فيها معالمها، وعندما حان الوقت أن تتجلى إلى الضيف ينظر في جمالها وحركاتها وسكناتها وكأنه ينتهك جسدها بنظراته الرهيبة، مع أنها عالجت من قبل أمه، بعد محادثة من أنه يريدها شريكة لحياته وأنه فخور جدا بعملها، ويشعر بالسعادة عندما يزور عيادتها عدد كبير من المرضى يستشيرونها، ويطلبون رأيها لعلاج أمراضهم، وبالرغم أنه يراها بنظرة عميقة لم تتحمل أن ترى فيها رجل غريب فتركتها في مكانه صارخة صرخة صريحة وعادت إلى غرفتها، فرحت نوال عندما اطلعت على رجل غريب الذي كان وحيدا في حياتها، أشد سرور الذي كان لها عليه هو أنه لم يمش على أساس المجتمع الذكوري التقليدي، متحدثة بأنها بدأت تتساءل عن نفسها بأن الفارق بين الذكر والأنثى الذي أحدثه المجتمع تذوب على يد الرجل، وشعرت هنا بأن الرجل قد يرضى ببعض شيء بداخله من تفريق شاسع في خلق المجتمع بين الذكر والأنثى وأنه يعاملها من منطلق ضعف المحب لا قوة الذكر الساعي دوما للسيطرة.

كانت هذه تجربة الأولى للكاتبة عن الزواج واختلاطها بالرجل الأجنبي بعد أن راح ينظر في جسدها بنظرة مخيفة مرهبة كان أول عريس لها. خلال هذه الفترة ظهرت لها بأن الزواج هو مصير محتوم ولا بد لها من الاستعداد لها ولا غنى عنها مهما

---

[١] مذكرات طبيبة، نوال السعداوي، دار المعارف، ص ٢٢-٢٣

كانت الأمور والأوضاع فلا بد لها من الزواج لأن الأسرة تتألف من الزواج وأن مستقبل الأسرة تعتمد عليها.

وبعد توثيق عقد زواجهما رفضت نوال أن يوثق عقد زواجهما كشؤون البيع والشراء، شعرت بالنفوذ وكادت أن تفسخ عقد الزواج، لكن زوجها أقنعها بأن ذلك مجرد روتين، ولا دلالة له على الطريقة التي ستسير عليها حياتهما، ورغم أنها رضيت لرغبته، لكنها شعرت أنها توقع على شهادة وفاة وليس عقد زواج.

رغم ذلك كله لم تسر الأمور كما كانت تتمنى نوال، بعد أن بدأ زوجها يتدخل في معاملة حياتها الخاصة وكانت تيقن بأن الزوج هو يركب على وجود شريكة حياتها وأفكارها، وبالرغم من أن الحياة الزوجية اشتهرت في أنحاء دولتهما حتى أصبح المرضى ينادونها باسمه، لكن الحياة الداخلية التي لم يتعرفها عليها إلا هي وهو! وحينما كانت تتأمله والرجل نائم على فراش الزوجية في الليلة المظلمة كانت تتخيل بأن ليس هناك علاقة وطيدة يربطها به.

بدأ يحاول فرض القيود عليها كما يفرض الأزواج على زوجاتهم عادة ولكن هذه الزوجة ما كانت عادية بل كانت كاتبة روائية جريئة التي ظهرت في القرن العشرين بأفكارها الغريبة وللهجوم على التقاليد القديمة في جميع مؤلفاتها هي رفضت كل القيد والسيطرة! داخل البيت وخارجها، أول شيء يريد استخدامه عليها هو الغيرة عليها والذعر من الرجال الآخرين. صرحت الكاتبة بأن زوجها شعر أن عملها هو مصدر قوتها فحاول منعها عنه، ولكن بالنسبة إليها هي تعتبر أن قوتها ليست تفيد من عملها، بل بعدم احتياجها من ناحية الاقتصادية لزوجها إطلاقا، وعلى العكس شعور زوجها الدائم بالنسبة إليها بأنه لا يستطيع الاستغناء عنها. حيث يقول: "أنا الرجل. ما معنى أنك الرجل؟ أنني صاحب السلطة. أي سلطة؟ سلطة هذا البيت بكل ما فيه حتى أنت. بوادر التمرد تظهر عليه... شعوره بالضعف أمامي انقلب في أعماقه إلى رغبة في السيطرة عليّ... لا أريد أن تخرجي كل يوم. أنا لا أخرج للعبث... أنا أعمل. لا أريد أن تكشفي على أجساد الرجال وتعريهم. نقطة الضعف التي يرتكز عليها الرجل في محاولته السيطرة على المرأة... حمايتها من الرجال... غيرة الذكر على أنثاه... يدعى أنه يخاف عليها وهو يخاف على نفسه... يدعى أنه يحميها ليستحوذ عليها ويغلق عليها أربعة جدرانه. لسنا بحاجة إلى إيراد العيادة. أنا لا أعمل من أجل المال... أنا أحب عملي. يجب أن تتفرغي لزوجك وبيتك. ما ذا تعنى؟ اغلقي العيادة. ظن أن عملي هو الذي يمنحني القوة التي تحول بينه وبين السيطرة عليّ... ظن أن تلك الجنيهات القليلة أو الكثيرة التي أكسبها كل شهر هي التي تجعلني شامخة[١١]

خلال تلك اللحظات توقفت الروابط الزوجية التي كانت تربطها به، لضعفها من ناحية، تحكي أن نظرة الضعف التي كانت تملأ عينيه تبدلت إلى نظرة الرجل الذي يشعر بالنقص. الإنسان يعرف بالمعاملات أو بالرحلات والأسفار لا بالابتسامة والدموع! فها هي الكاتبة الآن تصور زوجها الذي كان مختلفا قبل الأيام من أنه متأثر بها لأنها تقوم بالمرضى والخدمات الإنسانية والآن هي تقوم بالنقد عليه وتضعه في دائرة الرجال العاديين! هنا تظهر نقطة هامة للقارئين من أمثالنا بأن الكاتبة هي ليست صاحبة وحي تخطئ وتصيب أحيانا ولكن بالنسبة لي أخطائها أكثر من الصواب، لأنها كانت تمثله في نفس الرواية في الصفحات المذكورة رجلا مناسبا مخالفا للتقاليد القديمة الموروثة والآن هي تريد الانفصال عنه وتضعه في طبقة الذكورية المسيطرة! بعد الانفصال عنه هي عادت إلى حياتها الحرّة لا يشاركها أحد عالمها الصغير. لقد أثبت من قصتها الذاتية بأنها أخطأت في تشخيص الإنسان، فالذي يخطئ في تشخيص الإنسان كيف لا يخطئ في معرفة الدين! عاشت نوال طوال حياتها تجذّف على اسم الله وتتجرأ على أحكام الإسلامية التي ستنال عقابه حتما على كل ذلك بعد الانتقال من زخارف الدنيا وتتعرف على صحته بعد الرؤية بأم عينيها كما اكتشفت على زوجها الأولى بعد أن فرض عليها القيود والتقاليد الطبيعية.

---

[١] مذكرات طبيبة، نوال السعداوي، دار المعارف بمصر، ص ٦٩

ملامح من الأدب في الرواية

ظهرت سيرتها الذاتية وروايتها الأولى "مذكرات طبيبة" في النسخة العربية الأصيلة لأول مرة في شكل متسلسل في مجلة روز اليوسف المصرية عام ١٩٥٧م، ثم نشرت لأول مرة في نسختها المترجمة إلى اللغة الإنجليزية عام ١٩٨٨، تتحدث الكاتبة بأن الكتاب تم حظره في نسختي الكتاب المتسلسل والكامل، ولكنها كانت صغيرة وعديم الخبرة ومتشوق لرؤية الكتاب مطبوعا "سمحت بنشره مع شطب بعض كلماتها.

النص في الرواية هو سرد بضمير المتكلم يقرأ كسيرة ذاتية. أخذت الباحثة بموضوع عن شخصية "أنا" في الرواية لأن هيئة "أنا" تعبر عن ضمير المرأة القوية المتمردة والشجاعة، وهي مساعدة لأقوام ضعيفة، وهي مفجرة تحرير المرأة في زمنها. تجبر الكاتبة المرأة من قراءة التاريخ والقوانين والتقاليد، التي تقيدها بالأغلال، تعتقد أن الرجال ليس لهم حق السيطرة على النساء، بل يجب عليهم حماية حقوق المرأة، كما قال سبحانه في كتابه الكريم: [الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم]"١٢

استنادا إلى البحث جدير بذكر أن بعض المضامين الأدبية التي تمثل الكاتبة في الرواية. هو: النضال، والعاطفة، والدسيسة. والمراد بهذه العناوين كما يلي:

النضال

تقول الروائية: "خرج الصراع في أعماقي من نطاق الرجولة والأنوثة إلى الإنسانية جمعاء"[٣]ففي الاقتباس يوجد شخصية "أنا" أو "الطبيبة" أن الصراع الذي كانت تقوم به حتى الآن لم ينتج عنه راحة البال والعقل. خلال النضال أن تصبح طبيبة، كانت لتعرف فقط مشكلة الإنسانية كمشكلة في عالم الطب أيضا. لهذا السبب، فإن موضوع رواية مذكرات طبيبة هو النضال. ما معنى النضال؟ هل هذا من أجل أن تصبح طبيبة شهيرة جدا، لا بل بسبب العديد من الأشخاص الذين يحتاجون إليها لتكون طبيبة جيدة مسؤولة.

العاطفة

تتحدث الكاتبة: "سألني وهو ينظر إلى نظرة طفل يتيم فأثار أمومي وإنساني ورغبتي العنيفة في البذل والعطاء وأحسست أن حاجته إلى تشدني إليه وتربطني به، ونظرت إليه في حنان"[٤]في الاقتباس تنص الكاتبة على أن شخصية "أنا" تشعر بها اهتمام الرجل بها. شخصية "أنا" بلا وعي لديها أيضا الاهتمام بل تشعر أن تعجب، يأتي الرجل إليها، وهذا يشعره بالحماسة. ومع ذلك لا تزال لدى شخصية "أنا" الوقت للتفكير، بأن هذا الرجل أحبها فقط بسبب اعتماده على أم التي تركته. لذلك شئنا أم أبينا نشأت الأمومة التي تكمن في شخصية "أنا".

الدسيسة

تتحدث الكاتبة: بأن الدسيسة هي مسار قصة الأعمال الأدبية، منها ما يوجد في الرواية. الدسيسة تنقسم إلى عدة أقسام: وهي الدسيسة المتقدمة والدسيسة المتأخرة والدسيسة المتقدمة المتأخرة. رواية "مذكرات طبيبة" من القصص التي

---

[١٢] سورة النساء، ٣٤

[١] مذكرات طبيبة، نوال السعداوي، دار المعارف، ص ٣٧

[١] مذكرات طبيبة، نوال السعداوي، دار المعارف، ، ص٦٤

تحكى العملية التي تحكي القصة من البداية إلى النهاية. لذلك تكون هذه الرواية من الروايات المتقدمة الدسيسة. وتوضيحه كما يلي:

تحتوي الرواية على التعرف على حالة القصة الواردة في الرواية، التي تشمل التعرف على الشخصيات، والتعرف على الحالات، والتعرف على مشاهد القصة، ويتضح ذلك من خلال تصوير شخصية "أنا" التي تخبر القارئ بكل وضوح أن شخصية "أنا" لا تحب أني خلقت امرأة. وقد ظهر ذلك أيضا من خلال التعرف على أم شخصية "أنا" وشقيقها وجدتها وأبيها الذين قاموا بالتمييز ضد امرأة. ثم بعد ذلك تحتوي على تعبير الأحداث الواردة في الرواية التي تشمل الأحداث الأولى التي تسبب مشكلات وصعوبات للشخصيات. ويتضح ذلك من خلال معارضة شخصية "أنا" على أمها لأول مرة لأنها تقص شعرها. وكذلك غالبا ما تعارض ما لا تريده، إذا كان ذلك متعلقا بخلقة المرأة. تعتقد شخصية "أنا" أن للمرأة حقا في فعل الأشياء دون أي منع طالما لا تضر الآخرين، ولا يلزم أن تكون المرأة في المطبخ دائما وتخدم زوجها.

تتطلب الكاتبة في الرواية التوجه إلى وجود الصراع الوارد في الرواية يشمل: الفوضى أو تدخل الحالات المختلفة التي تسبب الصعوبة على الشخصيات. وذلك يدرك من اكتشاف رغبة شخصية "أنا" في أن تصبح طبيبة. في الوقت الذي اعتقد أن النساء خادمات للرجال، وهذا الموقف جعل أسرتها والمجتمع وحتى أمها يسخرون منها. يعتقد أنه لن يمكن أن تكون هناك طبيبة من النساء كما تطمح إليه، والنتيجة بدأت تعارض وتترك المنزل لنيل دراسة الطب. وأيضا أنها من أهم الروايات التي تبيّن قمة الصراعات الواردة فيها. تشمل تحديد التغيير في مصير بعض الشخصيات سواء نجحت أو فشلت في حل مشكلتها. ويتضح ذلك من خلال نجاح شخصية "أنا" في أن أصبحت طبيبة. ونجحت في الحصول على تلك الدرجة، بل فتحت العيادة كمكان التطبيق وأصبحت أولى طبيبة سامية في ذلك الوقت.

وأشارت الكاتبة في نهاية الرواية التي تشمل على بيانات عن مصير الشخصيات بعد حدوث قمة الأحداث. ويتضح ذلك من خلال إدراك شخصية "أنا" بأن صفتها كانت خاطئة لأنها شعرت بأنها أصبحت أسمى وأقوى بمعارضة أمها وأسرتها. شعرت شخصية "أنا" أنه لا فائدة في كونها طبيبة إذ كانت حياتها غير هادئة وسليمة مع أسرتها. وأخيرا وجدت شخصية "أنا" سعادتها بعد التصالح ولقائها بشريك الحياة الذي يحبها حبا حقيقيا.

المصادر والمراجع

١ الأنثى هي الأصل، نوال السعداوي، مؤسسة هنداوي

٢ السيرة الذاتية النسائية العربية المعاصرة، أمل تميمي

٣ قضايا المرأة والفكر والسياسة، د. نوال السعداوي، مكتبة بدبولي

٤ نفس المصدر

٥ مذكرات طبيبة، نوال السعداوي، دار المعارف

٦ أوراقي حياتي، نوال السعداوي، دار الهلال

٧ حقوق المرأة في الكتابة العربية منذ عصر النهضة، بو على ياسين

١١ المرأة والجنس، نوال السعداوي، دار ومطابع المستقبل بالإسكندرية

١٢ http://www.britannica.com/biography/NawaalELSadaawi

13 ١٣www.nawalsaadawi.com

رقم الجوال ٧٠٠٦١٦٦٠٤٦